الباستيل

في باريس كاتب روسي مجيد يدعى « اسكندر بابلونوفسكي » كان ولم يزل له مقام سام بين الكتاب الروس . قرأنا له مقالا ممتعا في مجلة « روسيا المصورة » التي تصدر في باريس تحت عنوان « الباستيل » وقد كتبه بمناسبة عيد ١٤ يوليو الماضي فرأينا أن نعربه لما فيه من الحوادث والعبر التاريخية الشائقة ، ولا يخفى أن قلعة «الباستيل» بدىء بتشييدها سنة ١٣٧٠ على عهد شارل الخامس ملك فرنسا . ولم تتم إلا سنة ١٣٨٢ وهدمها رجال الثورة الفرنساوية سنة ١٧٨٩ ـ قال الكاتب :

يعتبر الفرنسيون يوم ١٤ يوليو (تموز) عيداً وطنياً يحتفلون به كل عام . وهو أبهج يوم في باريس على الاطلاق حيث تأخذ الناس فيه نشوة الطرب والسرور الى أقصى حد : فتخفق الاعلام وتقام الزينات الباهره وحفلات الرقص . وتفتح مسارح التمثيل أبوابها للناس فيدخلونها مجانا زرافات زرافات وتصدح الاجواق الموسيقية في الحدائق والميادين العامة وتطلق الاسهم النارية بكثرة حتى ليخال للناظر أن الجو تحول الى شعلة من نار ذات ألوان ساحرة تبهر الأبصار

واعتمدت مدينة باريس في هذا العام مبلغ ٤٥٠ ألف فرنك لاقامة الاحتفالات في هذا اليوم التاريخي المجيد أي بزيادة ٧٥ ألف فرنك عن السنة الماضية حتى أن جرائد باريس انتقدت الحكومة لانفاقها هذا المبلغ الباهظ الذي لا يتناسب مع حالة فرنسا المالية المضطربة

لبثت كلمة الباستيل مائة سنة كاملة متسلطة على قلوب الناس بسحرها وقد نظم الشعراء أكثر من عشرة آلاف قصيدة عن حادثة هدم سجن الباستيل وصوروا له أكثر من ألف صورة وألفوا عنه أكثر من ألف رواية ومأساة ، وكان لتلك الحادثة اهمية تاريخية في حياة الامم والشعوب لا فرق في ذلك بين فرنسيين وروسيين وانكليز وألمان واسبانيين وايطاليين ـ فقد عاشوا جميعا تحت تأثير هذه الكلمة الرهيبة المرعبة وهي « الباستيل » !...

أما تلاميذ وتلميذات جامعات أوربا على الاطلاق فقد نظموا القصائد الرنانة

المؤثرة تذكاراً لتلك هذه القلعة المخيفة التي كان جميع الشبان الثائرين يعدونها حصن الملكية المطلقة وقلعة القوة الغاشمة . ولا غرابة في ذلك فانها كانت ذات جدران ثخينة لحد غير معقول وتواقد ضيقة لها قضبان حديدية علاها الصدأ . ووراء هذه القضبان نفوس تتألم وتتعذب وأجسام تركها السقم والشقاء أشباحا وخيالات !... وأعظم مما تقدم تأثيراً في النفوس هجوم الشباب الثائر على تلك القلعة المشؤومة والمناظر المريعة التي تمثلت للناظرين من صراع حاد في الشوارع وقرع الطبول . وأزيز رصاص البنادق وجموح الثائرين تسير وسط الدخان الكثيف الاسود . وأعلام حمراء تخفق في الفضاء . وأصوات تشيد المارشليز تخترق عنان السماء

ولنسمع ما قاله التاريخ ـ ذلك التاريخ الذي لا يحب الاشعار الخيالية ولا يعرف لبالي القمر الخادعة ـ ذلك التاريخ الذي أجاب على سؤال السائلين : « كم شخصا كانوا مسجونين في الباستيل يوم استولى عليه الثوار ؟ بانه كان فيه مجنونان ولصان ماهران والمركيز الشهير دي ساد المجرم الكبير الذي سجن لما كان يقترفه من الفساد والمجنة والفسق الفظيع . ولم يكن في سجن الباستيل يوم سقوطه غير هؤلاء ! ... ولكن من استولى على تلك القلعة ؟ ولمن ينسب شرف وفخار ذلك النصر المبين ؟ يجيب على ذلك المؤرخ الفرنسي الشهير (لويس مادلين) جوابا محدداً صحيحا وهو . « ان الجمهور الذي استولى على سجن « الباستيل » كان مؤلفاً من : الغوغاء واللصوص والجنود الآبقين من الجندية وعدد قليل جداً من سكان باريس . والخلاصة ان الذين استولوا عليه كانوا من الغوغاء واللصوص الشطار . » !...

ويقول هذا المؤرخ أيضاً « ان اولئك اللصوص الاتقياء كانوا من الوافدين على باريس بل كانوا من الرعاع الذين يعيشون في البلاد فساداً ويقلقون راحة الناس باللصوصية والقتل وسفك الدماء . وقبل هجومهم على سجن الباستيل بثلاثة ايام اجتاز حواجز ابواب باريس وشرعوا في السلب والنهب وقد سلبوا مخازن الخبز ونهبوا حوانيت الاثاث والرياش واوقعوا الرعب في قلوب الاهالي الذين كانوا اذا امسى المساء يلجأون الى منازلهم ولايخرجون منها مطلقا . كان اولئك الرعاع يكمنون في منحنيات الشوارع فاذا مارأوا مارأ هجموا عليه وجردوه ثيابه كلها وتركوه عاريا .

وقد ساعدهم في جنايتهم هذه الجنود الفارون من الجندية وكان على رأس هؤلاء الرعاع « كاميل دي مولين » وهو خطيب معروف ومحام بدون زبائن ويحقي بلا مواهب وبعبارة أخرى كان رجلاً خناقاً نرثاراً يخطب في كل ناد — هذا الرجل نفخ في بوق الثورة وعرف كيف يستولي على قلوب الرعاع ويتساط عليهم بقصد نوال الغنائم والمسلوبات...؛ وبعد أن حاز مع اتباعه عدة انتصارات وقف خطيبا بينهم وقال: « لقد وقع الوحش في الشرك. وانتصرنا انتصاراً مبينا فاستولينا على اربعين الف قصر

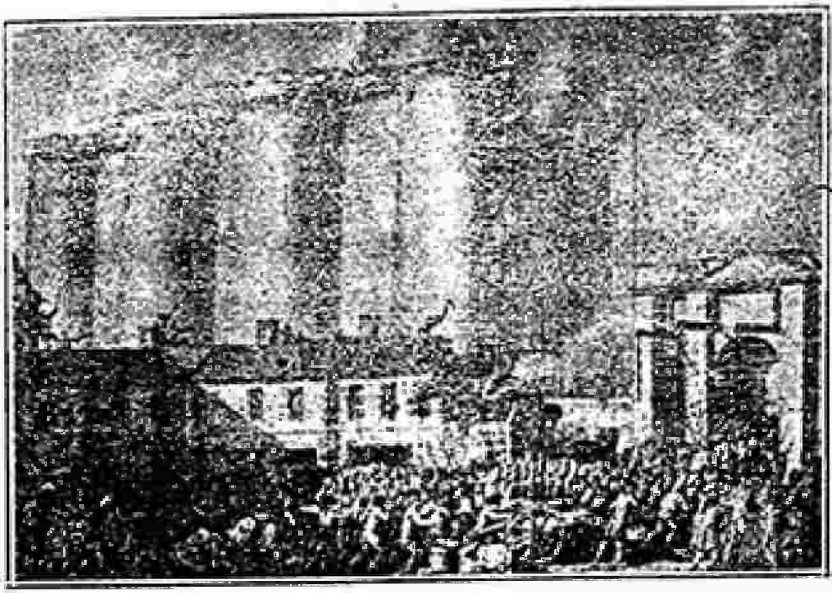

سجن الباستيل

وبيت وفنه في وسنستولي على اكثر من ذلك فالى الامام أيها الابطال »....؛ عندئذ دبّ الحماس في نفوس الرعاع الذين كانوا يطمعون بالمسلوبات فهجم بهم على الباستيل مع علمهم بأنهم لا ينالون منه شيئا من المنهوبات ولكنهم كانوا يأملون الحصول على كميات كبيرة من البارود

من كان يحافظ ويدافع عن سجن الباستيل ؟

كان رئيسا لحامية الباستيل يوم هجوم الثورة « الضابط دي لونيه » وكان رجلا طيب القلب ابن العريكة دمث الاخلاق حليما رؤوفا فلم يهتم لذلك الهجوم بل نظر

الى الثائرين نظرة عطف وحنان وانه لمن الانصاف أن نقول أنه كان تحت تصرفه وفي حوزته مدافع كثيرة لو أطلقها لاستطاع بمدة عشر دقائق تطهير ساحة القتال الا أنه لم يفعل لان الجماهير كان بينهم عدد وافر من النساء . ومن جهة أخرى رأى أنه ليس من الوطنية في شيء أن يطلق المدافع الفرنسية على الفرنسيين ولكن ماذا كان جزاؤه ؟ لقد قبض عليه أولئك الثائرون بعنف شديد ومزقوه اربا اربا ! ....

وقال المؤرخ مادلين : « انه عند ما وقع دي لونيه صريعاً فاقداً الحياة دنا منه طباخ من الثائرين يدعى ديفو (وكان ماهراً بتقطيع اللحم) فقطع رأسه وغرزه على رأس رمحه . وجاء آخر وقطع رأس ضابط آخر (مساعد رئيس الحامية) وغرزه أيضاً على رأس رمحه » ! ... ومن الغريب أن الطباخ « ديفو » لبث عشر سنوات بلا شدقيه فخراً توهما منه أن هذا العمل الجميل يدل على الشجاعة والجرأة... وكان يطلب بالحاح من حكومة الثورة أن تكافئه بوسام ويقول: « انني أنا أول من قطع رأساً ». ولكن لسوء حظه لم تحقق الحكومة آماله .... ولم يكن نصيب جنود الحامية الذين حلفوا يمين الطاعة بأحسن من رئيسهم فقد مثل بهم الثائرون تمثيلا شنيعاً حيث أشبعوهم لطماً وصفعاً وقلعوا شعورهم وداسوهم بارجلهم وقتلوا كثيرين منهم

والانكى من ذلك أنه عند ما ظهر سجينو القلعة (وهم أربعة لصوص وقاتل يدعى شولاج) قابلهم الشعب بالهتاف والتصفيق الحاد وكانوا يقبلونهم ويعانقونهم ويصافحونهم ويرشقونهم بالازهار

وبكت النساء من شدة التأثير وهتف الرجال هتاف الانشراح وبوجه الاجمال ارتفع الهتاف حتى بلغ عنان السماء وقد حمل الثائرون السجناء على الاكتاف حتى أن المركيز الفاسق بكى من التأثر وسارت الجماهير أمامهم وفي مقدمتهم الرماحة وعلى رماحها رؤوس الضباط والجنود وليتو سائرين وهم تملون بخمرة الفوز الى « باليه رويال » (القصر الملكي) حيث كان القائد « كاميل دي مولين » النافخ في بوق الثورة ! ....

واليك ما قاله المؤرخ « لويس مادلين » في وصف ذلك : « كان الناس في ساحة القصر كالبناء المرصوف . فلما شاهدوا الرؤوس المغروزة على الرماح اشتد الهتاف

واختلطت الاصوات ببعضها وكادت النساء تضيع رشدها من شدة السرور ثم أخذت النساء والاولاد يرقصون حول الرؤوس ويغنون أغاني التهليل » !...

ولكي نقيم وزناً لكل ثورة يجب أن نضع أمامك ثلاثة أسئلة وهي :

(١) ماذا هدم الثائرون ؟

(٢) ماذا أنشأوا ؟

(٣) ماهو الثمن الذي دفعوه لذلك ؟

ومن وجهة النظر هذه نستطيع القول بأن الثورة وا كاليلها الناريه لم تزدد ورقة خضراء واحدة بهدم سجن الباستيل

واذا كانت « الغاية لاتبرر الواسطة » فخير للمؤرخ المدقق أن يغفل ذكر الحقيقة التاريخية التي تسطر سفالة الواسطة . . .

— فمن حرروا ؟

— نفراً من الاسافل !...

— ومن قتلوا ؟

— نفراً من ذوي الفضل الابرياء

— وما دفع الشعب ثمناً لافراحه وسروره ؟

— مبلغاً من الرقص حول الرؤوس المبتة !...

ان شرب الخمر من جماجم المقتولين عادة بربرية قديمة . وان مئات الألف القصائد التي نظمت تغنياً لهدم الباستيل لاتستطيع أن تزيل من الذاكرة رقص أولئك الاجلاف حول الرؤوس المبتة .

والحقيقة الراهنة تنطق بصراحة بأن الحكومات الفرنسية السابقة لم ترتكب في سجن الباستيل من الفظائع والقساوة مالرتكبه الشعب لدى هدمه واستيلائه عليه

يجب على العقلاء أن يذكروا هذا دائماً اذا لم يريدوا الخروج من دائرة الحق والعدل أولم يريدوا الضلال في أودية خرافات الثورة الحلوة وأضاليلها ! . . .

أنا أعلم حق العلم مايقوله أنصار الثورة الخياليون عن الباستيل فقد لقبوه « برمز السيادة المطلقة الفاشمة » كما قالوا عن يوم ١٤ يوليو (تموز) انه أول يوم لحرية الشعب

لكنني أنا أرى أن خلفاء الثورة بنوا مكان القلعة المهدومة « قصراً هوائياً » وان خيالاتهم الكاذبة موهت بالذهب أبراج هذا القصر. وان الأساطير الخرافية أضرمت فيه ناراً جذابة خلابة! . . .

ان الملوك الفرنسيين لم يبنوا قلعة الباستيل بل شيدها (هوج اوبريو) محافظ باريس وحصنها تحصيناً عجيباً متيناً ليحمي المدينة من هجوم الانكليز في القرن الرابع عشر .

وكانت الحكومة الفرنسية تعامل سجناء الباستيل معاملة حسنة وتقدم لهم أطيب المأكولات وأشهاها وفي المكتبة الفرنسية العامة محفوظة قوائم الاطعمة التي كانت تقدم لنزلاء الباستيل كل يوم ماعدا يوم الجمعة وهاك احدى هذه القوائم التي تذكر أنواع الأطعمة في الأسبوع وهي:

لحم عجل	فراخ
لحم خروف	حمام
صدر خنزير غير مقدد ومملح .	بط
لسان	سمك
	عجة بيض

نعم لا ننكر أنه على عهد « لويس السادس عشر » تفرعت وتعددت المظالم والقساوة في سجن الباستيل ولكن الفرد لا يقاس بمن سبقه من الملوك

(حكمة الغرب) .

أسعد رجل من يظن نفسه سعيداً — فيلون

لا تحل جميع المسائل الانسانية الا اذا كان الحب بينها — ديدرت

شقاء الفقراء في أن يروا الاغنياء في غناهم وشقاء الاغنياء في أن لا يروا الفقراء في شقائهم — سانيال دوباى